قافلة الزيت

شوال ١٣٨٩ - ديسمبر ١٩٦٩ - يناير ١٩٧٠

الجوف

تاريخ عريق ومستقبل زاهر

معالي الأمير عبد الرحمن الأحمد السديري
أمير منطقة الجوف .

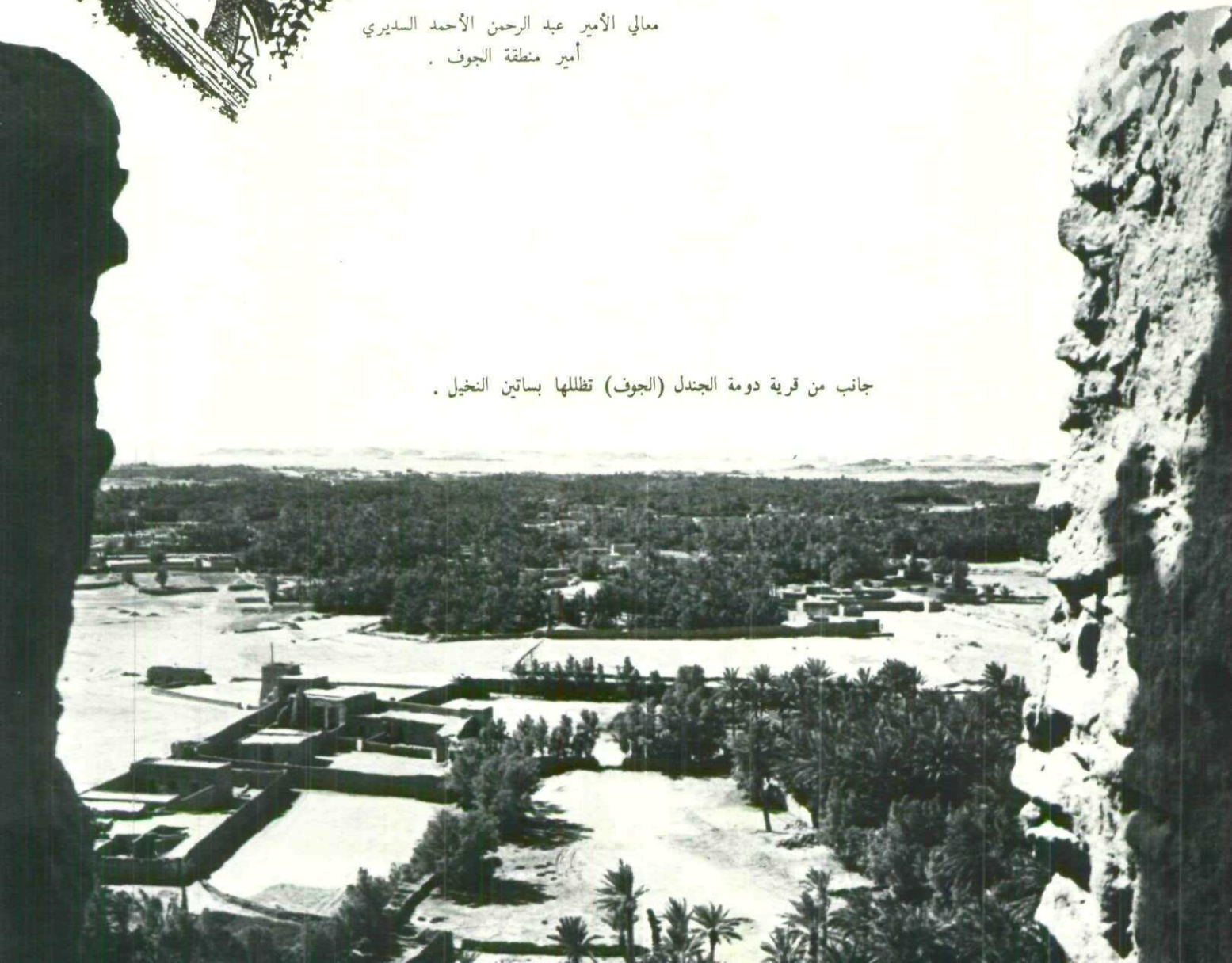

جانب من قرية دومة الجندل (الجوف) تظللها بساتين النخيل .

منطقة واسعة تقع في الجزء الشمالي من المملكة العربية السعودية بين خطي عرض ٢٨° و ٣٢° وخطي طول ٣٩° و ٤٢° شرقا ، وتنخفض عن المناطق المجاورة لها حوالي ١٥٠ مترا ، ولذا يطلق عليها اسم الجوف . ويبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر حوالي ٥٠٠ متر . وهي ذات مناخ شبه قاري يميل الى الاعتدال صيفا ، وبارد قارس شتاء . وهواؤها جاف قليل ، وماؤها عذب سلسبيل . والجوف عبارة عن واحة خصبة جيدة الزراعة غزيرة المياه ، تحيط بها صحراء شاسعة ، يحدها من الشرق والشمال الشرقي امارة الحدود الشمالية ، ومن الشمال الغربي منطقة القريات ، ومن الغرب امارة المقاطعة الشمالية (تبوك) ، ومن الجنوب منطقة حائل . كانت الجوف في السابق تتمتع بموقع جغرافي كبير الأهمية ، وذلك لوقوعها في وسط الطريق الذي يربط بين الجزيرة العربية وبلاد الشام . فكانت ممر قوافل التجار ، والواحة الوحيدة بين العقبة والعراق ، وكان للعرب فيها سوق للبيع والشراء ، يقيمونها في غرة ربيع الأول من كل عام .

تاريخ المنطقة

عرفت الجوف عبر التاريخ باسم « دومة الجندل » ، وهو الاسم الذي تحمله احدى قرى الجوف العريقة التاريخية . ويقال أن باني هذه القرية هو « دوماء بن اسماعيل » . وقد ورد في معجم البلدان : « لما كثر ولد اسماعيل عليه السلام بتهامة ، خرج « دوماء بن اسماعيل » حتى نزل في موضع دومة ، وبنى به حصنا ، فقيل دوماء ، ونسب الحصن اليه ». وورد في بعض المراجع التاريخية أن دومة الجندل كانت في ما مضى مملكة مستقلة تحكمها ملكة تدعى « تلعخومة » قامت بينها وبين الأشوريين معارك دامية وذلك عام ٧٥٠ق.م. ويعتقد بعض المؤرخين أن الجوف خضعت فترة من الزمن للحكم الروماني ، وهناك من الآثار الرومانية الباقية ما يثبت صحة ذلك .

وفي عهد الفتوح الاسلامية ، كانت الجوف تخضع لـ « أكيدر بن عبد الملك بن أعيا بن الحارث بن معاوية السكوني الكندي » الذي اتخذ له حصنا منيعا داخل أسوار دومة الجندل(١) لا تزال آثاره قائمة حتى اليوم ، ويعرف باسم « حصن أكيدر » ، فوجه اليه النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد اثر احتلال تبوك ، فحاصر الحصن . ويروى أن ولع « أكيدر » بصيد المها كان سببا في وقوعه بالأسر ، فقد قيل انه أثناء حصار خالد بن الوليد للحصن ، جاءت مها تحك قرونها بجدران الحصن ، فانتظر « أكيدر » حتى أرخى الليل سدوله ، ونزل اليها بغية صيدها ، فهجم عليه خالد وأسره وقتل أخاه حسان بن عبد الملك ، وافتتح دومة الجندل ، وذلك في السنة التاسعة للهجرة . واقتاد خالد بن الوليد « اكيدر » الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأكرم النبي وفادته ، وصالحه ، وأقره على ما في يده . وجاء في كتاب « الفتوح » لأحمد بن جابر ، ان « أكيدر » أسلم بعد صلحه مع النبي عليه السلام . وفي عهد الخلفاء الراشدين نقض « أكيدر » الصلح ، فغزاه عمر ابن الخطاب وأجلاه عن دومة الجندل الى الحيرة(٢) . وقد قال الشاعر في وصف اجلاء عمر بن الخطاب لأكيدر عن دومة الجندل :

يا من رأى ظعنا تحمل غدوة
من آل أكدر شجوه يعنيني
قد بدلت ظعنا بدار اقامة
والسير من حصن أشم حصين

وقد شهدت دومة الجندل التحكيم بين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان ، على قول بعض الرواة ، وذهب أكثرهم الى انه كان في اذرح .

وخضعت الجوف للعثمانيين ، مدة من الزمن ، الا أنها عندما ضعفت شوكة الدولة العثمانية تنازع على حكمها آل الرشيد بزعامة عبد العزيز ، وآل « الرواله » بزعامة نوري الشعلان ، وطرد ابن الرشيد آل الشعلان من قرية « اللقائط » في الجوف ، ثم ضمها الى امارته بعد أن نقل مقره الى حائل مسقط رأسه . وفي عام ١٣٤٠هـ ، أخضع المغفور له الملك عبد العزيز حائل للحكم السعودي .

سكان المنطقة وعاداتهم

يبلغ عدد سكان منطقة الجوف حوالي مائة ألف نسمة ، نصفهم تقريبا من البدو الرحل . أما الحضر منهم فينتمون الى « بني خالد » و « عيبة » و « السرحان » و « شمر » . ويقيمون في بلدتي الجوف وسكاكا الرئيسيتين وفي اثنتي عشرة قرية ، هي : « الطوير » ، و « قارا » ، و « اللقائط » ، و « الشويحطية » ، و « الطويل » ، و « مغيرا » ، و « المرير » ، و « العيساوية » ، و « النبك أبو قصر » ، و « اللحاوية » ، و « التنبة » ، و « خوعاء » . وينتمي البدو الى قبائل : « الرواله » ، و « الحازم » ، و « الهميزات » ، و « الشرارات » ، و « عنزة » ، و « شمر » . وتغلب على سكان المنطقة روح البداوة بما تتصف به من شجاعة ونخوة واكرام الضيف ، وهم صادقو الايمان مراعون لتعاليم الدين الحنيف . أما تسليتهم فتنحصر في حلقات السمر والتندر وفي ألعاب التسلية البريئة . وفي مواسم الأفراح والمناسبات يمارس أبناء المنطقة رقصة العرضة المشهورة الى جانب « الدحة » . وتعتبر الأخيرة من الرقصات المحببة لدى البدو ، وهي تتمثل في جماعة يتحلقون حول منشد شعبي فيرددون

(١) معجم البلدان – لياقوت الحموي .
(٢) جاء في بعض الروايات أن من أجلاه عن دومة الجندل هو أبو بكر الصديق .

N_1594_03

من ورائه أقواله بينما يقوم اثنان بالرقص بالسيف . ومن أناشيدهم المألوفة في مواسم الأفراح أنشودة تعرف باسم « الردة » ، وهي عبارة عن سجال بين شاعرين شعبيين كل يحاول ابراز مآثر قبيلته وشجاعة أبنائها وصفاتهم الحميدة .

النشاط الزراعي

يعتمد غالبية سكان منطقة الجوف في حياتهم على الزراعة وتربية الماشية وتجارتها ، وتتوفر لديهم الأسباب الحافزة للنجاح وهي التربة الجيدة والمياه الغزيرة ، والمناخ المعتدل . والى جانب ذلك ، فان الوحدة الزراعية هناك تسعى جاهدة الى تنشيط الحركة الزراعية . وقد قامت في المنطقة حديثا مزارع ناجحة أعطت محاصيل جيدة عادت على أصحابها بدخل جيد . ومن منتوجات المنطقة الرئيسية التمور ، والعنب ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والبطيخ ، والشمام ، والخضروات بأنواعها ، وكذلك القمح والشعير والبرسيم .

كما قامت في سكاكا أيضا جمعية زراعية تعاونية مساهمة يبلغ عدد أعضائها ١٢٠٠ شخص ، معظمهم من سكاكا والقرى المجاورة لها . وأول مشروع قامت به هذه الجمعية انشاء مزرعة لتربية الدواجن . كما قامت بانشاء محل لبيع الأدوات والمكائن الزراعية ، وهي الآن بصدد انشاء مزرعة لتربية الابقار وتحسين نسلها . والثروة الحيوانية في المنطقة كبيرة نسبيا ، فقلما يوجد فيها منزل لا يملك عددا من الماشية . وأكثر ما تكون المنطقة غناء بالابل الجيدة الأصيلة . حتى أن أبناء المنطقة يفاخرون بأصولها وأنسابها ويغالون بأثمانها ، ولا سيما البدو منهم . ويوجد في الجوف أنواع مختلفة من الابل تحمل أسماء معينة منها الوضحاء ، والصفراء ، والحمراء ، والملحاء ، وخلافها . ويقولون في وصف الابل الوضحاء : نوارة القلب ، والصفراء : بركة الابل ، والحمراء : خزن الابل ، والملحاء : درارة بالديم معجلة العتيم . ويشجع أمير المنطقة البدو على اقتناء الابل والحفاظ عليها ، ولذا يقيم في كل عام سباقا للابل يشترك فيه كل من لديه جمل جيد أو ناقة سريعة. وقد أقيم السباق هذا العام في ضاحية سكاكا ، وامتاز بالحماسة والمتعة ، واشترك فيه حوالي ٩٥ جملا وناقـــة . وكانت مسافة السباق عشرة كيلومترات ، قطعتها الجمال والنوق في نحو ربع ساعة . وبعد السباق وزع معالي الأمير على الفائزين جوائز قيمة ، فنال الأول ناقة ومبلغ

اتبعت طريقة زراعة الأشجار الحرجية في الجوف فأعطت انتاجا جيدا من الأخشاب .

سباق الجمال يقام سنويا في الجوف .. حتى الجمال يسترعيها السباق .

يتفقد عمال مزرعة الدواجن الدجاج باستمرار للتأكد من خلوه من الأمراض الجلدية .

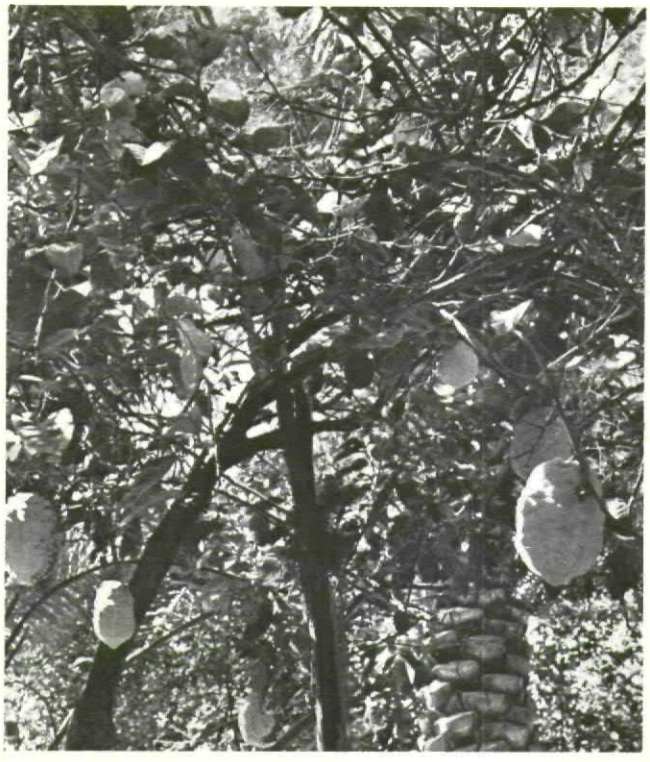

في سكاكا مزارع ناجحة تنتج مختلف أنواع الفاكهة والخضار ، وخاصة الحمضيات .

ألف ريال ، ونال الثاني ناقة ومبلغ ٧٠٠ ريال ، ونال الثالث ناقــة ومبلغ ٥٠٠ ريال . وترعى مديرية الزراعة ماشية المنطقة حيث يقوم فنيوها وأطباؤها البيطريون بعلاج الحيوانات وتحصينها ضد الأمراض .

النشاط الأدبي والثقافي

على الرغم مما تتمتع به منطقة الجوف من جمال الطبيعة الذي يثير قرائح الشعراء ، وعلى الرغم مما شهدته من الحروب والأحداث والغزوات المثيرة ، فان كتابا من كتب التراث لم يشر الى أن هناك شاعرا أو أديبا مشهورا خرج منها . على أن هنالك شاعرا من عنزة ، لا أدري اذا كان الى الجوف مرده ، يصف شجاعة أبناء المنطقة بقوله :

أباح لنا ما بــين بصرى ودومة
كتائــب منــا يلبسون السنّورا
اذا هو سامانــا من الناس واحد
لــه الملك خلا ملكه وتفطــرا
نفت مضر الحمراء عنــا سيوفنا
كما طرد الليل النهار فأدبــرا

ومع أن الحركة الفكرية هناك تسير سيرا وئيدا ، الا أن اقبال الجيل الصاعد على تلقي العلم يبشر بمستقبل أدبي زاهر . ويوجد في المنطقة حاليا ٢٨ مدرسة ابتدائية للبنين ، وست مدارس متوسطة وثانوية ، و خمس مدارس ابتدائية للبنات ، ومعهد لاعداد المعلمات ، عدا عدد من المدارس التي ما زالت قيد الانشاء . وتشجيعا للناشئة على العلم والتحصيل ، وتعميما للفائدة أنشأ معالي الأمير عبد الرحمن الأحمد السديري في سكاكا مكتبة ثقافية عامة على نفقته الخاصة ، بعد أن زودها بحوالي ٢٥٠٠ كتاب تبحث في مختلف العلوم ، بالاضافة الى عدد من المعاجم العربية وغير العربية . وقد لاقت هذه المكتبة اقبالا جيدا من الأهلين بحيث يتردد عليها شهريا أكثر من ألف شخص .

الحركة العمرانية

تبدو فــي الجوف تباشير حركة عمرانية ناشطة يسهم في انعاشها كل من الحكومــة والأهلين . فالحكومة تشق الشوارع الرئيسية التي تربط قرى الجوف ببعضها البعض ، وتنشيء المدارس والمستشفيات وغيرها من المرافق العامة ، وتعبد الشوارع داخل القرى الرئيسية وتنيرها بالكهرباء ، والأهلون يتطلعون الى اقامة العمائر والمنازل الصحية الحديثة .

الصناعات المحلية

تقتصر الصناعة في منطقة الجوف على انتاج مواد البناء الضرورية وعلى الحرف اليدوية المحلية ، كصناعة الخناجر والسيوف وصياغة المجوهرات . وكانت الجوف لمدة طويلة خلت ، مشهورة بصناعة العبي ، الا أن هذه الصناعة أخذت تضمحل تدريجيا حيث لم يعــد لها أثر يذكر .

الخدمات الصحية

توجد في الجوف ثلاثة مستوصفات وثلاثة مراكز صحية ، بالاضافة الى مستشفى سكاكا الذي يتسع لعشرين سريرا . ونظرا لطيب مناخ المنطقة يجري حاليا انشاء مستشفى للأمراض الصدرية هناك يتسع لمائتين وخمسين سريرا .

٢

٣

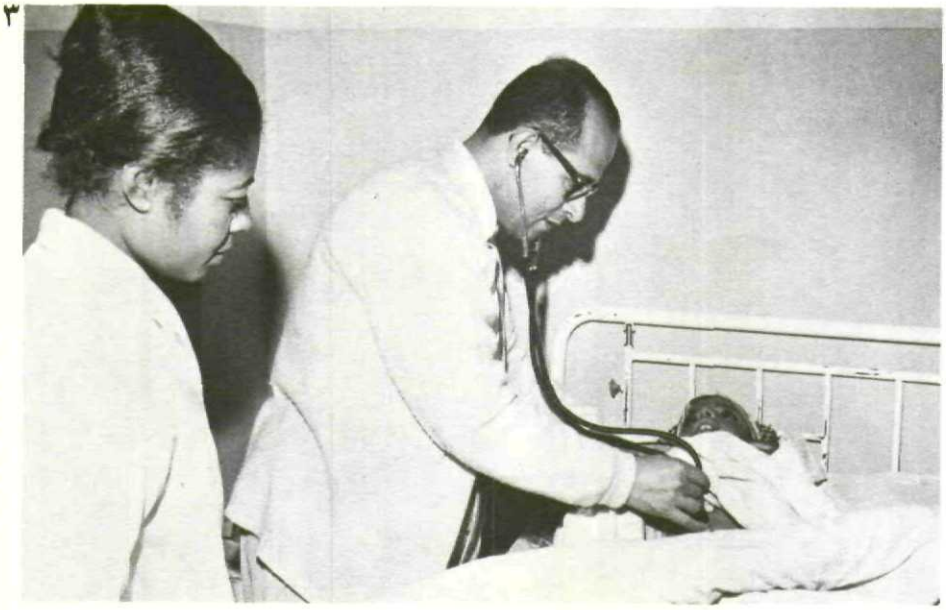

١ – صاحب السمو الملكي الأمير أحمد ابن عبد العزيز ومعالي الأمير عبد الرحمن الأحمد السديـــري أثناء زيارتهما لمكتبة الثقافة العامة في سكاكا .

٢ – « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .. فصل دراسي في احـــدى مدارس الجوف .

٣ – طبيب مختص يفحص احد المرضى في مستشفى الجوف المركزي .

٤ – بقايا مدينة دومة الجندل الأثرية وقد بدت المنازل فيها متراصة مزدحمة ، وتبدو في مقدمة الصورة مئذنة الجامع الأثري الذي ينسب بنـــاؤه الى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٤

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» .. جامع حديث في سكاكا مبني بالحجارة المقصبة .

مشاريع الانشاء تقوم على قدم وساق ، وهذا نموذج منها .

القرى الرئيسية

في الجوف قريتان رئيسيتان احداهما عريقة في القدم ، وهي « دومة الجندل » ، والثانية حديثة نسبيا ، وهي سكاكا . فدومة الجندل قرية غنية بالآثار الباقية حيث تحتضن قلعة « أكيدر » التي تشرف على مدينة تاريخية متهدمة لم يبق منها سوى جامع صغير ينسب بناؤه الى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ومئذنة غريبة الشكل ، لها قبة حجرية محدودبة على شكل قباب الكنائس . والى جانب غنائها بالآثار ، فان دون الجندل غنية بينابيع المياه التي أشهرها : عين المعيريق ، وعين المصيرعة ، وعين الوادي ، وعين البحران ، وعين قراطين ، وعين العابس ، وعين العروض ، والعين الكبرى . والى جانب هذه العيون تحتوي أيضا على ٦٠ بئرا ارتوازية ، كما أنها غنية بزراعة النخيل بأنواعه المشهورة : السكري ، والحلوة ، وأم الحمام ، والشلبي ، والشعرا ، والبرحي ، وكذلك بزراعة الرمان والأترنج والتين والزيتون والبرشومي وغيرها .

أما بلدة سكاكا فتعتبر مقر أمير المنطقة ومركزها الاداري ، وعدد سكانها أكثر من عدد سكان دومة الجندل ، وفيها يكمن سوق المنطقة التجارية . زراعتها جيدة ومياهها متوفرة وهي آخذة تدريجيا في التطور والازدهار والعمران . ومن مظاهر هذا التطور أن أخذ أسلوب البناء الحديث يطغى على أسلوب البناء القديم .

وتروى عن بناء هذه البلدة قصة طريفة مفادها أن رجلا يدعى « قريع » كان يسكن وبناته الثلاث في قلعة لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم ، وتعرف باسم قلعة « زعبل » ، في جبل « الضلع » المشرف على القرية . وكان لهذا الرجل عدو ينام كل يوم أمام باب القلعة متحينا الفرص للقضاء عليه . وجاء الى المنطقة ثلاثة أخوة شبان من قبيلة « بني خالد » . فاستجار بهم « قريع » من عدوه ، فأجاروه وقتلوا عدوه ، فكافأهم على ذلك بأن زوجهم بناته الثلاث ، فسافر اثنان منهم الى الأردن ، بينما أقام الثالث في سكاكا حيث عمرها هو وأبناؤه .

هذا وتوجد في ضواحي سكاكا آثار حجرية تشبه المسلات المصرية في الشكل ولكنها أصغر منها حجما ، وعليها كتابات تاريخية ونقوش أثرية قديمة ■

تصوير : عبد اللطيف يوسف

قلعة « أكيدر » في دومة الجندل، وقد تقوض بعض أجزائها بمرور الزمن .